الموضوع العاشر

من يستجاب له الدعاء

عن سعد بن أبى وقاص - رضى الله تعالى عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن هذا القرآن نزل بحَزَن» (بكسر الباء وفتح الحاء والزاى) وفى بعض الروايات بَحُزْن (بضم الحاء) وإن كان المشهور فى بعض الكتابات، وفى بعَض الروايات بفتح الباء والحاء.

[رواه ابن ماجة (١٣٢٧)]

بعد أن تحدثنا عن العزيمة والرغبة فى حفظ القرآن الكريم، فإننى سآخذ لكم حديثًا نبويًا شريفًا فى المعنى ذاته، والحديث هو عن سعد بن أبى وقاص (رضى الله تعالى عنه).

فهذا الصحابى كان مستجاب الدعوة ليس فقط؛ لأن طعامه كان حلالاً، فهذا شىء أساسى، فقد كان مستجاب الدعوة، لا خلاف على هذا، وليس فقط لأن النبى ﷺ دعا له فقال: «اللهم اجعله مستجاب الدعوة».

من هنا نجد أن الأمر الأول: أن طعامه كان حلالاً، والأمر الثانى: أن النبى (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه) دعا له أن يكون مستجاب الدعوة، والأمر الثالث: أن الله تعالى لا يستجيب الدعاء إلا من قلب حاضر أى حاضر مع الله ﷻ.

سيدنا سعد ﷺ اجتمع فيه أمران من سيدنا محمد ﷺ وهو: «أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة» والأمر الثانى: «اللهم أجب دعوة سعد» والأمر الثالث: وهو أن سعدًا كان قلبه حاضرًا نقيًا ليس ملتفتًا إلى غير الله .

فإن الله تعالى لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاهٍ ساهٍ، وإنما يستجيب الله تعالى الدعاء من قلب حاضر، من قلب يقظ، من قلب متعلق بعرش الرحمن جل جلاله، من قلب يُفرق بين الحرام وبين الحلال، من قلب فيه بصيرة، من قلب فيه خشية، هذا هو المعنى الذى أردت أن أضيفه لكم؛ لأن أسماء الصحابة رضى الله عنهم لها دلالات، وهم أولىٰ أن تسمى شوارعنا بأسمائهم؛ لأن الله تعالى خلدهم فقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الفتح: ٢٩] فخلدهم الله، ورغم هذا من النادر أن تجد مدينة باسم صحابى، أو شارعًا باسم صحابى، وإنما تُسمَّى الشوارع بأسماء الزعماء، وأسماء القادة، وأسماء المدن والبلدان، أى: داخل المدن يسمى شارع لبنان، شارع فلسطين، وتناسى الناس أصحاب الفضل فى هذه الأمة وهم أصحاب النبى (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه) .

أى إذا رأى أحد الناس شارعًا اسمه شارع "سعد بن أبى وقاص ﷺ" وقرأ هذا الكلام يبدأ بربط الأسماء التى لها معانٍ، الأسماء التى لها دلالات، الأسماء التى تكون فيها يقظة.

فى رواية ابن ماجة: «إن هذا القرآن نزل بحزن، فإذا قرأتموه فابكوا من البكاء، فإن لم تبكوا فتباكوا، – وتغنوا به فمن لم يتغن بالقرآن فليس منا» .

«إن هذا القرآن نزل بحزن»، إذا كان القرآن نزل بحزن فابكوا، الإنسان عندما يقرأ القرآن فإنه يبكى من خشية الله، يتباكى من خشية الله، يتزلزل من خشية الله، فإن لم تبكوا فتباكوا، وتغنوا به، فمن لم يتغن بالقرآن فليس منا .

وروى عن جابر ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن من أحسن الناس صوتًا بالقرآن الذى إذا سمعتموه يقرأ حسبتموه يخشى الله تعالى» رواه الإمام ابن ماجة.

الحديث الأول: «إن هذا القرآن نزل بحزن» والحديث الثانى عن سيدنا جابر – رضى الله تعالى عنه –: «إن من أحسن الناس صوتًا بالقرآن الذى إذا سمعتموه يقرأ حسبتموه يخشى الله تعالى» رواه ابن ماجة ﷺ، ورضى الله تعالى عن سيدنا جابر، وعن سيدنا سعد بن أبى وقاص، وعن سيدنا أبى موسى، وعن سائر أصحاب النبى ﷺ.

إن الإنسان عندما يرتل القرآن فإنه يتأثر بالقرآن، يتأثر بآيات الوعيد، وآيات الزجر، إن هذا القرآن نزل بحزن، أى: نزل وله ثقل، نزل وله شدة، نزل وفيه تكليفات شديدة.

ففى قول الله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

أى إنا عرضنا الأمانة – التى ائتمن الله عليها المكلَّفين من امتثال الأوامر واجتناب النواهى– على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها، وخفن أن لا يَقُمن بأدائها، وحملها الإنسان والتزم بها على ضعفه، إنه كان شديد الظلم والجهل لنفسه.

فالقرآن الكريم فيه أمانات، فيه تكليفات شديدة، «إن هذا القرآن نزل بِحُزنٍ أو بِحَزَنٍ فإذا قرأتموه فابكوا» (من البكاء) ابك، اخضع لله، تزلزل من البكاء، والزلزلة والمعايشة، أن تعايش القرآن الكريم فيكون لك حالة من الرغبة والرهبة، مع القرآن الكريم؛ لذا فإن الله تعالى ﷻ يقول: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٢٣].

الله تعالى هو الذى نزل أحسن الحديث، وهو القرآن العظيم، متشابهًا فى حسنه وأحكامه، وعدم اختلافه، تثنى فيه القصص والأحكام، والحجج والبينات، تقشعر من سماعه، وتضطرب جلود الذين يخافون ربهم؛ تأثرًا بما فيه مِن ترهيب ووعيد، ثم تلين جلودهم وقلوبهم؛ استبشارًا بما فيه من وعد وترغيب، ذلك التأثر بالقرآن هداية من الله لعباده، والله يهدى بالقرآن من يشاء مِن عباده، ومن يضلله الله عن الإيمان بهذا القرآن؛ لكفره وعناده، فما له مِن هاد يهديه ويوفقه.

الإنسان عندما يقرأ يتزلزل كقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ﴾ [فاطر: ٣٦].

والذين كفروا بالله ورسوله لهم نار جهنم الموقدة، لا يُقْضى عليهم بالموت، فيموتوا ويستريحوا، ولا يُخَفَّف عنهم مِن عذابها، وبمثل ذلك الجزاء يجزى الله كلَّ متمادٍ فى الكفر مُصِر عليه.

هذه آيات الإنسان عندما يتلوها لابد أن يتزلزل معها، لابد أن يعيش معها، «إن هذا القرآن نزل بِحُزنٍ أو بِحَزَنٍ، فإذا قرأتموه فابكوا» القلب نفسه لابد أن ينفطر من عظمة الله ﷻ كما فى قوله تعالى: ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢].

أى قل - أيها الرسول - لهؤلاء المشركين: لمن مُلكُ السموات والأرض وما فيهن؟ قل: هو لله كما تقرون بذلك وتعلمونه، فاعبدوه وحده، كتب الله على نفسه الرحمة فلا يعجل على عباده بالعقوبة ليجمعنكم إلى يوم القيامة الذى لا شك فيه للحساب والجزاء، الذين أشركوا بالله أهلكوا أنفسهم، فهم لا يوحدون الله، ولا يصدقون بوعده ووعيده، ولا يقرون بنبوة محمد ﷺ.

يقول الله تعالى فى سورة الزمر: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾ [الزمر: ١٣-١٨].

فإن هذا القرآن نزل بِحُزنٍ أو بِحَزَنٍ فيه ثقل، فيه شدة، فيه تأثير، وإن النبى (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم)، كان عندما يتنزل عليه القرآن العظيم، فإن حاله كان يتبدل تمامًا، يتغير كل التغيير، ويستشعر الصحابة أن شيئًا عظيمًا جليلاً يحدث الآن بواسطة جبريل عليه السلام بأجنحته الستمائة ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ ۖ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾ [النجم: ٤ - ١١].

فلنستشعر جبريل عليه السلام بهذه القوة، بهذه الشدة، وهو ينزل بكامله على قلب الحبيب ﷺ، فكيف كان قلبه؟ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ ﴾ [المزمل: ٥، ٦].

إن هذا القرآن نزل بِحُزنٍ أو بِحَزَنٍ بشدة بقوة على قلب الحبيب ﷺ؛ لأجل هذا عندما تقبل على حفظ القرآن الكريم أيها الأخ الكريم، وأيتها الأخت الكريمة لابد أن يكون القلب كله منشغلاً بالقرآن، مشدودًا بالقرآن، ولا ينشغل بشىء غير الحفظ.

القرآن يحتاج إلى صدر منشرح، يحاول أن يعايش حالة البكاء بما يسمى التباكى، من كلامك يا حبيب الله ﷺ «الذى إذا رأيتموه يقرأ حسبتموه يخشى الله»، وفى استشعارك للقرآن بخشوع قلب وحركة فؤاد، وانفعال مع القرآن، ويجيش القرآن فى القلب، وتأثر القلب بأنوار القرآن، هذه حالة ينتقل فيها الإنسان من البكاء إلى التباكى، إذا بكيت فهذه حالة مهمة لطيفة أساسية عندما تمر عليك آيات ستعصر وتشد قلبك .

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٣ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ١٤ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ١٥ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ١٧ ﴾ [إبراهيم: ١٣ - ١٧].

الذى يقرأ هذه الآيات فى سورة إبراهيم ولا يتزلزل، ولاينفعل، ولا يبكى، ولا يتباكى، فمعنى ذلك أن القرآن الكريم لم يدخل إلى قلبه، وإنما مر إلى حنجرته، مر إلى الحنجرة وتوقف، ولكنه لم ينزل من الحنجرة إلى أسفل كما قال النبى العظيم ﷺ .

اللهم إن رحمتك خير من عملى، وعَطَيَّتُك أفضل من مسألتى، فبرحمتك يا إلهى، بكرمك، وعزتك، وارتفاع مكانتك، وجلال وجهك، وقدرتك، وعظمتك وسعة فضلك، أعطنى خير الدنيا والآخرة فى هذا الشهر المكَّرم، وارزقنى فيه شكرًا، واستعملنى فيه بطاعتك حتى أكون يوم فاقتى غنيًا فى لحدى

إذا أُقررتُ فيه أمنا من هول المطلع، وأكون قبل موتى مغبوطًا فى دار الدنيا بسعة الرزق وصلاح الشأن، اللهم بك أرجو بلوغ رضاك بعملى، وأنت يا إلهى من كل شىء حسبى فأنت يا إلهى لا شريك لك، وأنت يا إلهى ملك رءوف، فلك أسلمت وجهى، ولك الحمد والشكر على ذلك، اللهم أنت ثقتى ورجائى، وإليك رغبتى ودعائى، وأنت بحاجتى عالم غير مُعلم، وأسألك يا الله أن تجعلنى فى هذا اليوم من عُتقائك من النار، وأن تجعل اسمى فى أسماء الأبرار والأخيار، إنك على كل شىء قدير، وذلك عليك سهل يسير يا أرحم الراحمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين.